عظة في ميلاد والدة الإله الكلّيّة القداسة

القدّيس يوحنّا مكسيموفيتش

أُلقيَت في تشينغداو في العام 1948

"ما أعظمَ أعمالكَ يا ربّ! كلَّها بحكمةٍ صنعتَ" (مزمور 103: 24)، هكذا هتفَ المرتّل منذ سالف العصور. فما هي تلك الحكمة (أو "صوفيّا" باليونانيّة) التي خُلِقَت بها كلُّ الأشياء؟

يقول مزمورٌ آخر: "بكلمة الربّ أُبدِعَت السموات، وبنسمة فيه قوّاتها جميعها" (مزمور 32: 6). ويعلن القدّيس يوحنّا الإنجيليّ اللاهوتيّ قائلًا: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله... كلُّ شيءٍ به كان، وبغيره لم يكن شيءٌ ممّا كان" (يوحنّا 1: 1-3).

إنّ حكمة الله أو كلمة الله الذي خلقَ الله به كلّ شيء، ليس محض مفهومٍ مجرّدٍ لصِفةٍ من صفات الله. يقول الإنجيليُّ نفسُه بعد ذلك: "والكلمة صار جسدًا وحلَّ بيننا، ورأينا مجده، مجدًا كما لوحيدٍ من الآب" (يوحنّا 1: 14).

إذًا، الكلمة الذي به خُلِقَ كلُّ شيء، هو ابن الله الوحيد، الأقنوم الثاني من الثالوث القدّوس. ويُدعى أيضًا "حكمة الله"، كما يقول الرسول بولس في رسالته: "لأنّ اليهود يسألون آية، واليونانيّين يطلبون حكمة، ولكنّنا نحن نكرز بالمسيح مصلوبًا... المسيح قوّة الله وحكمة الله" (1 كورنثوس 1: 22-24).

يُدعى ابنُ الله كلمةَ الله وحكمته لأنّ الله الآب يخلق كلّ شيءٍ بوساطة ابنه. وهكذا، من خلال ابن الله، يتكلّم الآب بوساطة أعماله، ومن خلاله أُعلِنت "حكمة الله المتنوّعة" (أفسس 3: 10).

لقد تجلّت حكمةُ الله أوّلاً في خلق العالم المنظور وغير المنظور. نحن نرى العالم الآن في حالته الخاطئة، وقد فقدَ صلاحه الأصليّ وتضرّر بالخطيئة، ولكن ما أروع هذا العالم وانعكاس حكمة الخالق فيه!

فلننظرْ إلى السماء، حيث الحركات المتناغمة للأجرام السماويّة، وحيث يتحرّك كلُّ شيءٍ وفقًا للقوانين الأزليّة التي وضعها الخالق في الطبيعة عند تكوينها. لا شيء يزعج مسارها، ويحدث كلُّ شيءٍ في تناغمٍ من دون أن يتداخل مع آخر.

ولننظرْ حولنا: نرى حكمة الخالق في كلّ نبتة، وكلّ حيوان، وكلّ حصاةٍ صغيرة!

يمتلك كلُّ حيوان، وصولاً إلى أصغر حشرة، التكيُّفات اللازمة للحفاظ على حياته وحمايتها وتطويرها، ولتكاثر فصيلته.

يتكوّن كلُّ كائنٍ حيٍّ أو جمادٍ في الطبيعة من أدقّ الجُسيمات المرتَّبة بتناغم، ويمثّل بنيةً مذهلةً ونسيجًا أنيقًا، ويدلُّ على بنّاءٍ وفنّانٍ عظيم.

ولنُلقِ نظرةً فاحصةً إلى أنفسنا: يا لها من تركيبةٍ عجيبةٍ وحكيمةٍ للعالمين غير المنظور والمنظور نمثّلها نحن! بأجسادنا التي تنتمي إلى العالم المادّيّ، نمثّلُ أبدع خليقة، حيث يكون لكلّ خليّةٍ هدفها الخاصّ.

كلّما تعمّق العلم في أسرار الطبيعة، اتّضح أكثر أنّها من صُنع أعظم حكمة، واتّجهت أنظارُ عقولنا إلى أعلى، مُدركةً خالقها. إنّ قدرتنا عينها على الإدراك والتفكير، واستخدام الاكتشافات، والإبداع، والسلوك بحكمة، تُظهِرُ أنّنا لم ننشأ بالصدفة، بل نحمل في داخلنا بصمة الخالق الحكيم.

وروحنا على وجه الخصوص، التي على صورة الله، تشهد لله الكلّيّ الحكمة، وترفع الإنسان عاليًا فوق الأرض وبحر الحياة، وتسمح لنا، حتّى في هذه الحياة الحاضرة، بالتواصل مع القوّات العلويّة.

لدينا هذا كلّه، حتّى الآن في حالتنا الخاطئة، حالة السقوط، وفي طبيعةٍ خاضعةٍ للفساد. فكيف كان جمال العالم وصلاحه عندما خُلِق؟!

إذ نظر لوسيفوروس أوّلُ الملائكة إلى جماله، تكبّر ورغب في أن يصبح مساويًا للضابط الكلّ، فسقط وابتعد عن الله. ولما طُرح من السماء، حسد الإنسانَ المخلوق وجرّبه ليُخالف وصايا الله.

وبعد أن أخطأ آدم الأوّل، فقدَ هو والبشريّة جمعاء مجدَهم وكرامتهم الأصليّة. أظلمَ العقل البشريّ، وضعفت الإرادة، وتدنّست المشاعر. فقدَ الإنسان الشركة الممتلئة نعمةً مع الله ينبوع الحياة، وصار مائتًا.

ومع سقوط إكليل الخليقة، أي الإنسان، حدث تغييرٌ في العالم بأسره، لأنّ الخطيئة جلبت معها كلّ عواقبها. أصبح العالم كلُّه فاسدًا وخاطئًا. وأخذت الطبيعة، وفي مقدّمتها الحيوانات، تؤذي الإنسان، بينما كان هو يكابد في أعماقه آلام الانفصال عن الله.

ومع ذلك، وحتّى قبل تأسيس العالم، سبق الله الكلّيّ الحكمة أن رأى سقوط الإنسان الذي خلقه، وليس ذلك فحسب، بل سبق أن حدّد أيضًا كيفيّة إصلاحه. فقبل بدء العالم، كان قد قُرّر في مشورة الثالوث القدّوس أنّ ابن الله، الأقنوم الثاني من الثالوث القدّوس، سيصير إنسانًا ويحمل خطايا العالم ويُكفّر عن تعدّي آدم.

لم يُعلَن لأحدٍ الدواء المُعَدّ للمرض البشريّ، بل ظلّ قرارُ مشورة الثالوث القدّوس سرًّا عن العالم المخلوق بأسره. كان من الضروريّ إعداد مسكنٍ لائقٍ على الأرض لابن الله المتجسّد. وكان من الضروريّ إيجاد إناءٍ طاهرٍ في أوساط الجنس البشريّ الذي أفسدته الخطيئة، لينحدر إليه كلمة الله غير المخلوق بكلّيّته، وبالجسد الذي يتّخذه، يحلّ بين الناس ويصير هو نفسه إنسانًا. لقد استغرق الأمر قرونًا عديدةً لإعداد تحقيق تدبير الله الحكيم، ولتظهر العذراء الطاهرة المستحقّة أن تصير أمًّا بحسب الجسد لذاك الذي به خُلقت السماء والأرض، والذي به كان سيتحقّق قصدُ الثالوث الكلّيّ الحكمة لخلاص العالم.

"ولما جاء ملءُ الزمان" (غلاطية 4: 4)، وحان الوقت ليتجسّد ابنُ الله على الأرض، أعلن الله لرئيس الملائكة جبرائيل سرّ مشورة الثالوث القدّوس العجيبة، وأُرسِلَ هذا الأخير إلى الناصرة ليُبشّر العذراء مريم بمخلّص العالم الذي سيولَد منها.

ظهر جبرائيل للعذراء الكلّيّة الطهارة مُعلنًا للبتول المشورة التي ما قبل الدهور وقائلاً لها: "افرحي أيّتها الممتلئة نعمة! الربُّ معكِ: مباركةٌ أنتِ في النساء... ها أنتِ ستحبلين وتلدين ابنًا وتسمّينه يسوع. هذا يكون عظيمًا، وابن العليّ يُدعى" (لوقا 1: 28-32). ارتبكت الفتاة الشابّة المتواضعة عندما سمعت هذه التحيّة. فمنذ سنّ الثالثة كانت في الهيكل الذي أرسلها إليه والداها. كانت هناك في صلاةٍ مستمرّة، وتربّت في قدس الأقداس حيث سمعت أقوالًا سماويّة، لكنّها لم تكن تتخيّل أن تكون أمّ الفادي، لا سيّما وأنّها قد نذرت البتوليّة.

قال الملاك مُجيبًا عن سؤالها "كيف يكون هذا وأنا لستُ أعرف رجلاً؟": "الروح القدس يحلُّ عليكِ وقوّة العليّ تُظلّلكِ، فلذلك أيضًا القدّوس المولود منكِ يُدعى ابن الله". فأجابت مريم بتواضعٍ وخضوعٍ لمشيئة الله:

"هوذا أنا أمة الربّ! ليكنْ لي كقولك" (لوقا 1: 34-38). حينها حلَّ في مريم كلمة الله، ابن الله الوحيد، هو الذي "لا تسعُه سماءُ السموات" (1 ملوك 8: 27؛ 2 أخبار الأيّام 6: 18)، الذي "السماء كرسيّه والأرض موطئ قدميه" (إشعياء 66: 1؛ أعمال الرسل 7: 49)، اختار العذراءَ مسكنًا له، وجعل عرشَها مضجعًا وبطنَها أرحبَ من السموات. لقد ظهرت العذراء مريم "أرحبَ من السموات".

وبعد تسعة أشهرٍ ولدت ابنًا، ولدت الله ظاهرًا في الجسد. "إنّ السرّ الخفيّ منذ الدهور غير المعلوم عند الملائكة، بكِ ظهرَ يا والدة الإله للّذين على الأرض، إذ تجسّد الإله باتّحادٍ لا تشوُّش فيه، وقبِلَ الصليب طوعًا من أجلنا".

ومع ذلك، بقيت بتوليّة مريم وتجسُّد ابن الله منها سرًّا عن الشيطان حتّى أتمّ الربُّ عملَ خلاصنا. "فلنقبل الصليب طوعاً"، لأنّ الربّ يسوع المسيح، باحتماله الموت وقيامته من بين الأموات، وهبَ الحياة للجنس البشريّ وفتح الفردوس المحفوظ لهم. وبتجسُّده من العذراء مريم، "آدم دُعِيَ ثانية، واللعنة بادت، وحوّاء انعتقت، والموت أُميتَ، ونحن قد حيينا".

إلى جانب الإنسان، يتحرّر العالم كلُّه من الفساد، مستعدًّا الآن لليوم الذي سيتطهّر فيه الكونُ بالنار، وتُعتق الخليقة كلُّها من عبوديّة الفساد، وتُظهِرُ السماء الجديدة والأرض الجديدة خليقةَ الله بكلّ جمالها وصلاحها.

وهكذا تُدمَّر خطّة خبث الشيطان، ويوجّه خالقُ العالم كلّ شيءٍ بحكمةٍ وفقًا لمشيئته لصالح الخليقة كلّها. فكما خلقَ الله العالم في الأصل بكلمته، أي بوساطة ابنه، هكذا، بابن الله يُولَدُ العالم من جديدٍ بعد السقوط. ذاك الذي به أُعلنت حكمة الله في الخليقة، به أيضًا أُعلنت حكمة الله في استعادة العالم الذي دمّرته الخطايا وفي إعادة نعمة الله إليه.

لذلك، يُدعى ابنُ الله حكمة الله، أو باليونانيّة "صوفيّا"، لأنّنا به عرفنا ونعرف الله الكلّيّ الحكمة. يسوع المسيح "صار لنا حكمةً من الله وبرًّا وقداسةً وفداءً" (1 كورنثوس 1: 30).

إنّ العذراء الكلّيّة الطهارة، التي تجسّدَ منها المسيح ابن الله، خالقنا ومخلّصنا، لكي يهبنا الحياة الأبديّة، كانت السلَّم الذي نزل الله بوساطته إلى الأرض، وأصبحت لنا الجسر الذي نصعد به إلى السماء.

قبل وقتٍ طويلٍ من تجسُّد المسيح، تنبّأ الأنبياء بمجيء المسيّا منها. رآها النبيُّ حزقيال بابًا مغلقًا في المشرق، يدخل منه الربُّ ويبقى مغلقًا، ما يعني أنّ مريم تبقى عذراء قبل الميلاد، وفي الميلاد، وبعد الميلاد. أمّا النبيّ دانيال، ففي تفسيره لحلم نبوخذ نصّر الغامض، فقد رآها جبلاً بكرًا، قُطِعَ منه حجرٌ بغير يدِ إنسان فملأ الأرض كلَّها، وهو ما يشير أيضًا إلى ميلاد المسيح من العذراء بلا زرعٍ وبلا دنس. ويهتف النبيُّ إشعياء قائلًا: "هوذا العذراء تحبلُ وتلِدُ ابناً وتدعو اسمه عمّانوئيل: الذي تفسيره الله معنا!" (إشعياء 7: 14؛ متى 1: 23).

وفي العصور القديمة، رأى الجدُّ الأكبر يعقوب في حلمٍ سلَّمًا منصوبةً على الأرض ورأسها يمسُّ السماء، ما يرمز إلى تلك التي نزل بوساطتها ابنُ الله إلى الأرض. ويرنّم لها داود الملكُ المرتّل بوصفها الملكة التي قامت عن يمين الملك، موشّاةً بالذهب ومزيّنة، وكلُّ مجدها من داخل. ويتحدّث عنها سليمان الحكيم في سفر الأمثال بوصفها بيتًا للحكمة: "الحكمة بنَتْ بيتها، نحتَتْ أعمدتها السبعة" (الأمثال 9: 1). البيت الذي سكن فيه الحكمة الأزليّ خلال التجسُّد هو حيث ظهرت العذراء مريم الكلّيّة الطهارة. وأعمدة هذا البيت هي فضائلها. كان الرقم سبعة يشير عند شعوب الشرق القديمة إلى الكمال، وتشير أعمدة البيت السبعة إلى كمال صلاح والدة الإله. لذلك، تُصوّر الأيقونات حكمة الله وابن الله جالسًا على العرش، وكأنّه في مبنى على سبعة أعمدة، في إشارةٍ إلى أمّه الكلّيّة الطهارة. في الأعلى سبعة رؤساء ملائكة، وعلى الجانبين سبعة أنبياءٍ معهم لفائفُ مكتوبٌ عليها نبوءاتٌ عن العذراء مريم، وفي الأسفل أسماء الفضائل السبع. يشير الرقم سبعة، المتكرّر مرّاتٍ عديدة، إلى الكمال الروحيّ للعذراء المباركة.

الآن، عندما نرتّل "ميلادكِ يا والدة الإله بشّرَ بالفرح كلّ المسكونة"، يُبنى بيتٌ أرضيّ للحكمة الأزليّ، ويُهيَّأ مسكنٌ لابن الله الآتي من السماء ليُخلّص الجنس البشريّ.

"المسيح من السموات فاستقبلوه". لاستقباله، يُعدُّ خدرٌ حيٌّ وهيكلٌ مكرَّس، ليحلّ فيه كلمة الله الأزليّ النازل من السماء، وتبدأ من هناك إعادة بناء العالم، ليوحّد السماء والأرض من جديد.

فلنفرحْ ونبتهجْ بميلاد مريم البتول المختارة من الله، ولنُسبّح عذراءَ العليّ الكلّيّة الإكرام، أمّ الله الكلّيّة الطهارة، بيت حكمة الله، ولنُقدّم الإكرام اللائق لوالدَيها البارَّين. "ولملك الدهور، الذي لا يفنى ولا يُرى، الإله الحكيم وحده، يسوع المسيح، الكرامة والمجد إلى أبد الآبدين، آمين" (1 تيموثاوس 1: 17؛ رومية 14: 26).

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Saint John Maximovitch (1948). *Homily on the Nativity of the Most Holy Theotokos*. Retrieved online from Mystagogy Resource Center.